مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد التاسع / العـدد الثاني
(8 رجب 1447هـ/ 28 ديسمبر 2025م)، ص 367– 382

الملامح الاجتماعية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية من خلال الانتاج الأدبي لمحمد ديب

Social features in Algeria during the colonial period as reflected in the literary works of Mohammed Dib

د/ عبد الرزاق قشوان Abderrezak Kechouane [1]

[1] جامعة الجزائر 2 (أبو القاسم سعد الله)

[1]المؤلف المرسل:د/ قشوان عبد الرزاق Abderrezak Kechouane البريد الالكتروني: abderrezak.kechouane@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 11 /2025/10 تاريخ القبول: 25 /2025/10 تاريخ النشر: 28/12/ 2025

الملخص:

عاش المجتمع الجزائري أثناء الفترة الاستعمارية أوضاع غير مرضية، بسبب الممارسة الاستعمارية المقيتة، وتعتبر من أبشع الممارسات الظالمة وغير إنسانية طيلة الفترة الاستعمارية. فجرت تلك الممارسات قريحة الأديب الجزائري مُحَّد ديب قريحته للكتابة، إن مُحَّد ديب الابن البار لوطنه جعل من القلم وسيلة للدفاع عن تلك الممارسات المجحفة وهو نوع من أنواع المقاومة لصالح شعبه وضد الممارسات اللا إنسانية في ظل الاحتلال. يعبر الإنتاج الأدبي لمحمد ديب مظهر وملمح للوضع المزري الذي طالما وصفه الكثيرون من المؤرخين والأدباء والكتاب بكل أصنافهم وهذه الورقة البحثية أردت من خلالها إبراز الوضع الاجتماعي للمجتمع الجزائري تحت الاستعمار الفرنسي .

الكلمات المفتاحية: الملامح الاجتماعية، الجزائر، الفترة الاستعمارية الفرنسية، مُحَّد ديب، الإنتاج الأدبي.

Abstract:

Algerian society experienced unsatisfactory conditions during the colonial period, due to abhorrent colonial practices, considered among the most heinous, unjust, and inhumane practices throughout the colonial period. These practices sparked the Algerian writer Mohamed Dib's creative potential. A loyal son of his country, Mohamed Dib used his pen as a means

of defending these unjust practices, a form of resistance for his people and against the inhumane practices under occupation. Mohamed Dib's literary output reflects a manifestation and a glimpse of the dire situation that has long been described by many historians, writers, and authors of all stripes. Through this research paper, I sought to highlight the social situation of Algerian society under French colonialism.

Keywords: Social features; Algeria; Mohamed dib; Literary production.

1. مقدمة:

تعتمد الدراسات التاريخية المعاصرة على الكثير من المصادر التاريخية ويعتبر الإنتاج الادبي من اهم هذه المصادر لأنها تعبر عن عمق الواقع الاجتماعي. فالوضع الذي عاشه المجتمع الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية جد رهيب ومستمر والقاتل لأنه ارتبط باستعمار استيطاني هدفه مسخ مقومات شعب ليغرس مكانها مقوماته ويسلب شخصية هذا الشعب ليغرس شخصيته وهنا نجد الكثير من الجزائريين المثقفين جادت قرائحهم للدفاع عن شعبهم وتواجدهم بطرق شتى وفنون مختلفة.

يعتبر مُحَّد ديب من هؤلاء الادباء والفنانين الذي يعبر عن أوضاع اجتماعية وسياسة استعمارية تظهر بارزه من خلال انتاجه الادبي الفني في قصصه المملوءة بمظاهر الأنين وصور الفقر وتداعيات التجهيل.

أردت من خلال هذه الورقة البحثية ابراز أهمية الفن الادبي لمحمد ديب عرض الأوضاع بعض الملامح الاجتماعية للمجتمع الجزائر خلال الفترة الاستعمارية فهي صورة من واقعه الاجتماعي.

2. صورة المرأة والطفل:

كتب فرانز فانون "Frantz Fanon" في جريدة المقاومة الجزائرية الصادرة بتاريخ 16 ماي 1957م يقول: "لقد وصف المفكرون الاستعماريون المرأة الجزائرية بأوصاف مختلفة، إنهم يزعمون أنها أسيرة، مهانة، متغيبة عن الحياة...، وأنه يجبرها على أن تقبع في طفولة دائمة، فتعلق المرأة الجزائرية ببيتها لم يكن يعني كراهية الشمس أو الهروب من العالم، ذلك أن الانطلاق والانطواء كان يعني المحافظة على بذرة الإخصاب داخل وجود محدود، لكنه منسجم ويمثل القوى الأساسية للشعب المضطهد".[1]

كما كتب مُحَمَّد السعيد الزاهري أحد أبرز الأعضاء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العدد الأول من جريدة السنة يقول: "والذي يسرني جدا أن نساءنا ما زلن يعتقدن أن الحجاب هو إمارة الشرف والاستقامة، وعنوان العفاف والتقوى"[2].ويقول موريس فيوليت:" لأن السواد الأعظم من النساء الجزائريات يرتدين زيهن التقليدي ولباسهن المحتشم أثناء خروجهن لقضاء حوائجهن"[3]، فيظهر هنا فشل الأساليب والطرق الفرنسية الهادفة للقضاء على الدين الإسلامي ومسخ الشخصية الوطنية الجزائرية.

إن الأهمية التي تلعبها المرأة الجزائرية في الحفاظ على الثقافة المحلية –وهو نوع من المقاومة، لم يستطع الفرنسيون محاربته بالمواجهة لأن ذلك كان إعلانا بالفشل– جعل السينما الكولونيالية تستهدف هذه الفئة الحساسة، وتعلق بها إشاعات عن غراميات واختلاط جنسي أكثر من مرة من خلال الأفلام التالية: "في ظل الحريم، الشهوة، والمرأة والعندليب".[4]

واجهت المرأة الجزائرية الكثير من العقبات للتصدي لهذه الأوضاع المزرية، خاصة وأنها في كثير من الأحيان كانت لا تمتلك ما يعول أسرتها، فتضطر إلى تجسيد حيل لتقنع أبناءها بأن وجبة الغداء أو العشاء ستجهز قريبا، وفي هذا الصدد يقول مُحَمَّد ديب: "كانت عيني فيما مضى من زمان تستطيع أن تهدئهم بحيلة ماكرة، كانوا يومئذ صغارا، كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم عند المساء، حتى تملأ الحلة ماء، وتدع الماء يغلي على النار، وتطلب إلى أولادها التي تنتظر بفارغ الصبر أن يهدؤوا قليلا أن يناموا".[5]

إن هذه الحيلة كانت تلجأ إليها مختلف النساء في العائلات الجزائرية عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى، لتنسي أطفالها الجوع نظرا لانعدام توفر الطعام ولتأخر توزيع المئونة، فنجد ديب يوضح هذا في كل جزء من أجزاء رواياته قائلا: "وكانت زليخة، التي تسكن تحت تلجأ إلى هذه الحيلة نفسها مع أولادها، وهم أربعة صبيان لا يكادون يقوون على الوقوف على أقدامهم الرخوة، كان الخبز يعوزها في أحيان كثيرة كما كان يعوز "عيني"، ويقول أيضا: "قالت "عيني": لا تقولي يا عزيزتي زينة أننا تغذينا، بل قولي إننا خادعنا الجوع، نحن نتمنى لو نتغذى، طبعا نتمنى"[6].

يدفع هذا الضيق الأولياء إلى الانفعال والصراخ في وجه أبنائهم، هذا بالذات ما نجده في دار السبيطار خاصة "عيني"، فما أن يفتح "عمر" عينيه حتى يسمع من أمه ما تيسر من الشكوى والاحتجاج،[7] قائلة: "هذا كله ما تركه لنا أبوك، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشيء، ترك لنا البؤس، غيب وجهه في التراب، وسقطت على جميع أنواع الشقاء، الشقاء هو نصيبي طوال حياتي ".[8]

إن النساء الجزائريات كن يؤدين دورهن كزوجات ويجسدن مسؤوليتهن كأمهات بكل جدارة، ويساعدن أزواجهن في تحمل عناء المعيشة، علما أن تسيير هذا البيت يتماشى مع إشكالية الخوف اليومية من النظام الكولونيالي، وما رافقته من الحاجة إلى توفير القوت اليومي ومحاربة ظاهرة الجوع لدى الأطفال الصغار، هذا ما يوضح لنا شخصية المرأة الحريصة على تنظيم شؤون بيتها، ولا تهتم فقط بالبكاء والعويل عند الموت، أو سجن أحد أفراد العائلة من قبل البوليس الفرنسي.[9]

يقول مالك بن نبي: "ففي العائلة لا بد أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة، وبالتالي فهي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائما فارغا، ولا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي بدل المال سريرها الخاص، وأذكر أنه كان مصنوعا من عدة ألواح من الخشب رقعت على صاقلين، وكان هذا ما يسمى في الجزائر آنذاك (السدة)". [10]

هذا ما يوضح أن حالة النساء والأطفال كانت متشابهة في أغلبية البلاد الجزائرية. ويقول أيضا: "وموارد العائلة كما ترى كانت هزيلة، إلا أننا كنا نحصل على قوتنا بفضل حسن تدبير. أمي وانكبابها الليالي الطوال على عملها، ولكن أمي في إدارتها لشؤون العائلة كانت تعرف أن ما يحصل عليه أطفالها من غذاء غير كاف، فكانت تسد هذا النقص بعمل إضافي أيام الجمعة، كان هذا العمل الإضافي يعطينا أنا وشقيقتي يوم الجمعة قطعة من الرفيس"[11]، لأن العمل الإضافي كان الوسيلة الوحيدة لتأمين قوت الأطفال اليومي.

كان الوضع في كل المناطق الجزائرية، أين تكون الأولوية فيها للذكر على حساب الأنثى، تعيش المرأة حياتها دون عمل، دون حقوق إنسانية، دون أموال ومصاريف، وتحتفظ فقط بإمكانية تزويد العالم كل سنة بطفل جديد، وفي حالة غياب الأب تكون الأم مجبرة على إعالة أبنائها دون أن تقدم لها يد المساعدة من

أي أحد، فتتوجه إلى سوق الغزل ومصانع السجاد، يقول ديب: "إن المبلغ الذي تتقاضاه أجرا على عملها كان من تفاهته يثير الخنق حقا، ولا مخرج من هذا العسر الذي كانوا فيه، إنها تخيط سيقان أحذية القماش منذ بضعة شهور، ومع ذلك لم يشبع أفراد الأسرة مرة طوال هذه المدة"[12]، وهنا يتفق كلا من "مُحَمَّد ديب" و"مالك بن نبي" على أن العمل لم يكن يوف احتياجات الأسرة، ولم يكن يسد رمقهم، بل فقط كان يؤمن لهم قطعا صغيرة من الخبز كي لا يموتوا من الجوع فحسب.

فقد تولدت صورة تشاؤمية للحياة من قبل النساء والأطفال نتيجة للجوع الذي تفاقم في الأوساط الجزائرية، هذا من جهة ومن جهة أخرى، نتيجة لليأس الذي تملكهن لأنهن لم يكن بوسعهن أن يوفرن قوتا أطفالهن مع مضاعفة العمل.

مارست المرأة الجزائرية مختلف الأعمال الشاقة بدون كلل أو ملل دون أن تحصل على أي قسط من الراحة، فضلا على اشتغالها في كثير من الأحيان خارج منزلها سواء في أرضها أو في أعمال أخرى.[13]كان الأولاد الجزائريون يلعبون في شكل عصابات صغيرة، وهم دوما على أهبة الاستعداد للفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم في كل مكان، قد ألبسوا أودية عتيقة بالية، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفي أرجلهم أحذية رجالية، صفر الوجوه، عيونهم سوداء، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء، هم نشطون لا يفتؤون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضا، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين، وجب عليهم الفرار في كل لحظة يتبعهم غضب الناس، إنهم يمتهنون الشحاذة وفي بعض الأحيان النشل والسرقة، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوروبيين، ينظرون إليهم، بل يحملقون بانتباه متجمع، مما يظهرهم أسن ما هم عليه في الحقيقة، وينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوروبيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التي لم تعرف الجوع، والأطفال الأوروبيون يخشون عادة أطفال العرب، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخيفوهم صرخن مهددات: "سأنادي العربي".[14]

إن مصير الأطفال الجزائريين هو الحرمان منذ نعومة أظفارهم، فيتوجهون للشارع ليهيموا على وجوههم وينكبون على إدمان الخمر والسجون.[15]

كان الأطفال يتناولون حصتهم من الخبز خفية خوفا من أن يفقدونها عنوة، الأمر الذي وضحه محمد ديب في مواطن عدة من صفحات روايته فيقول: "كان ثمة تلاميذ يبلصهم عمر في كل يوم، يطالبهم بنصيبه، فإن لم يطيعوا أمره فورا، كان جزاؤهم الضرب في كثير من الأحيان، غير أن الماكرين من التلاميذ كانوا يلتهمون خبزهم أثناء الدرس في الفصل".[16]

كانت الطبقة الفقيرة في كثير من الأحيان تعيش من خلال الصدقة، كما كان الأطفال الصغار يحصلون على قطع صغيرة من الخبز، وبقايا أطعمة مقابل مساعداتهم لبعض العائلات في الشؤون المنزلية، فيقول محمد ديب: "وكان عمر يحصل على الخبز في دار السبيطار بطريقة أخرى، كانت يمينة ... تعود من السوق في كل صباح بقفة مليئة، وكثيرا ما كانت ترجوا عمر أن يقوم عنها ببعض الأعمال، يشتري لها الفحم، ويملأ دلوها من ماء العين، ويحمل عجينها إلى الفرن، وكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة من الخبز مع ثمرة من الفاكهة أو مع فلفلة مشوية، حتى لقد كانت تعطيه من حين إلى حين قطعة من اللحم أو سردينة مقلية ...، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشيء من طيب الطعام فيه...، كانت يمينة لا تقدم له إلا بقايا الطعام ولكنها بقايا نظيفة".[17]

نشأ أغلبية الأطفال الجزائريين في أسر فقيرة بائسة، يعيشون في بيوت قديمة، ضيقة، جدرانها متآكلة، لا تتوفر على أدنى وسائل الراحة، فيفترشون الأرض، وبالتالي لا يسلمون من حر الصيف ولا من برد الشتاء، يقول ديب: "الثلج هاطل لا محالة في تلمسان متى انخفضت درجة الحرارة في شهر فبراير، كان عمر يضع قدميه المتجمدتين على البلاط، وعيني عارية الساقين حتى الركبة، ترتدي قميصا رقيقا مشمورا فوق سروال من الخام، وقد شدت كتفيها بمنديل ممزق".[18]

كان عمر من القلائل الذين أتيح لهم فرصة التعليم، أما أختيه فلم يكن لهما ذلك الحل، لأن الفتاة في ذلك الوقت مكانها المكوث في البيت حسب تقاليد المجتمع الجزائري أولا، واضطهاد السياسة الفرنسية ثانيا.[19]

أما فيما يخص الأطفال الذين يقطنون الأرياف فكانوا يمتهنون الرعي عند الكولون أو عند كبار الملاك مع جلب العلف والحشائش للأرانب في المنتجعات الخاصة بالمستوطنين أو القياد أو شيوخ الفرقة، بدون

الحصول على أجر لأنهم كانوا يتلقون فقط قوت يومهم وما يتناولونه أثناء عملهم كمكافأة لهم على مجهوداتهم.

لقد عانى أطفال القرى والأرياف من الفقر والبؤس بشتى أنواعه، لدرجة أنهم كانوا يفترشون الدوم مع غطاء شبه منعدم، وملابسهم كانت مقتصرة على عباءة بالية وأقدام عارية، مكتفين في وجباتهم على كسكسي مصنوع من دقيق البلوط ودقيق الشعير ونخالة القمح وخبز بالماء أو بالبصل إن وجد، الشيء الذي دفعهم للجوء إلى سلك العمل في سن صغير.

توضح "الدار الكبيرة" الصورة المأساوية للطفل، بحيث أن كل الأطفال يعانون من نفس المشاكل (البحث الدائم عن الخبز)، كما تبين لنا الأطفال من طبقات اجتماعية مختلفة من خلال المقارنة بين الأطفال بواسطة عرض أوساط اجتماعية متباينة تظهر وضعية الطفل في المجتمع الكولونيالي، وفي الجهة الأخرى نجد جيلا آخرا من أبناء المستوطنين الذين يعيشون حياة ملأها الغناء، حيث أنهم لم يعرفوا الجوع والبؤس أبدا،[20] وفي هذا الصدد يقول مُحَمَّد ديب: "كان أحدهم، وهو صبي غير متكبر، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص خبزا فحسب."[21] بينما يتحدث في موضع آخر عن الأطفال الجزائريين يقول: "إن المرء يصادف في كل مكان من الشوارع أطفالا من هؤلاء الأطفال الذين يظفرون حفاة الأقدام، إن لهم أعضاء كأعضاء العنكبوت وهنا، وإن أعينهم لتتقدمن الحمى".[22] هنا تتضح لنا الصورة المعكوسة التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، أين قلب موازين القوى، فأضحى السكان الأصليون يعيشون حياة بائسة، بينما يعيش المستوطنون حياة ملأها الرقي والازدهار.

صرح ج. توماس"J.Thomas"[23] في تقرير له يصف فيه حقيقة الوضع الاجتماعي والصحي والمعيشي، الذي آل إليه الجزائريون بعد قرن وربع القرن من الاستعمار الفرنسي بما يلي: "لقد عشت في مدينة الجزائر فترة طويلة، ولقد رأيت فرقا من الأطفال في أسمال بالية، يحنون قوت يومهم ابتداء من سن الخامسة ببيع الجرائد ومسح الأحذية، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية، وهي أماكن تعبر عارا على الحضارة الغربية، وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثا عن العمل، ينامون في

الليل في الحفر ويتغذون ببعض حبات من التمر أو من العنب... وشاهدت أطفالا عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب، كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا في بضعة أيام بغرداية، فكيف لا تحصد الثورة؟ عندما نكون قد زرعنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد والإهانات، والبؤس".[24]

الشيء الذي يبين لنا أن حالة الأطفال الجزائريين كانت نفسها في كل مناطق البلاد ومن جهة أخرى توجه الأطفال الصغار لسلك العمل، فمنهم من امتهن الشحاذة ومنهم من امتهن بيع الجرائد وتلميع الأحذية، والبعض الآخر وجد مكانا له في بعض المحلات والدكاكين، فيقول ديب: "إن أحد أبناء العمة حسنة كان قد وضع عمر عند حلاق من الحلاقين، فكان عليه أن يذهب إلى الحلاق كل يوم بعد الظهر عند خروجه من المدرسة".[25]

في الوقت الذي كانت فيه النساء الجزائريات تفكرن في طريقة لتأمين وجبات الطعام لأبنائهن، كان الأطفال الصغار يحاولون مساعدة أمهاتهم من خلال النبش في أكياس القمامة الخاصة بالأوروبيين وبعض الجزائريين العاملين لصالح فرنسا، وهذا ما وضحه "مُحَمَّد ديب" حين قال: "أما عمر فكان يشعر بموت في نفسه من طول ما نبش أكوام الفضلات في السوق المسقوفة، كان يذهب إلى السوق بحثا عن خضر يمكن الانتفاع بها، فإذا عثر على شيء منها، أخذ يلتقطه ويدسه في قفته".[26]

3. وضعية العمال والفلاحين: تسببت سيطرة المستوطنين الأوروبيين على الملكيات العقارية في تعقيد حياة أكثر من سبعة ملايين فلاح جزائري كادحين، تنحصر مواردهم في أراضيهم في المناطق الزراعية، فانتشرت البطالة بشكل خطير، واضطر العمال المزارعون إلى الهجرة شبه الجماعية إلى المدن، والاستقرار على أطرافها في أحياء قذرة بنوها بأنفسهم من القصدير والخرق البالية والبوص وقطع الخشب وعلب الأطعمة الفارغة.[27]

تعيش هذه الطبقة في مستوى منخفض جدا، أغلب أفرادها عاطلون لا يعملون إلا أعمالا مؤقتة مثل: مسح الأحذية والحمالة ومسح البيوت وبيع الصحف والعمل اليدوي، والبناء والزراعة والأشغال العامة وغيرها، ويشكل التجار والبائعون الصغار والحرفيون حوالي 30% من هذه الطبقة في القرى المجاورة للمدن التي يسكنها المستوطنون الأوروبيون.[28]

إن الكثير من أهل البادية والقرى الصغيرة لم يعودوا يتحصلون على ما يسد قوت يومهم، حتى صارت المجاعة تهددهم، إلى أن وصلت مجلة الشهاب تطالب باستخدام العمال الجزائريين في المشاريع المحلية بدل استخدام اليد العاملة الأجنبية من الإسبان والإيطاليين وغيرهم.[29]

لا توجد إدارة تهتم بشؤون الأهالي ومصيرهم، الأمر الذي جعل الحالة الاجتماعية تتفاقم فأخذ بعض العاطلين عن العمل يقومون بكراء يدهم بالأجرة، وبقي البعض الآخر مشردين مطرودين منبوذين ينتقلون من كوخ لآخر، حسب أهواء سادتهم لا مدرسة لأبنائهم، ولا نار تدفئهم ولا نور ينيرهم بعيدين عن المستوطنين.[30]

إن نظام الخماسة[31] أفقد الفلاح الجزائري كل حقوقه، فتسبب في الإنقاص من مدخوله من عام لآخر، وذلك بدلا من التزايد (أو على الأقل المحافظة على الوضع على ما هو عليه)،[32]بالرغم من أن الغلال كانت تتزايد كل سنة بفضل الآلات والماكينات، إلا أن الخماس لم يستفد من هذا الوضع المتطور، والسر في ذلك يكمن في عقلية المزارع الذي يجد نفسه مجبرا على استدعاء عدد متزايد من الفلاحين بحكم تطور الأعمال، في حين يبقى النصيب المحدد للقسمة هو "الخمس"، الأمر المؤدي إلى تناقص حصة الفلاح.[33]

وهذه الحالة أدت إلى تدهور وضعية الفلاح المادية والمعيشية، هذا ما نلتمسه في العديد من صفحات كتابات مُحَّد ديب، وكمثال على ذلك ما يلي: "إن حياتهم تنقضي أيام زراعة ورعي لدى المستوطنين الفرنسيين، والفلاحون كثيرا ما تلم بهم المجاعة، وحين يحيط الليل فيبتلع الظلام تلك الأكواخ الحقيرة التي يسكنها هؤلاء الفلاحون، وذلك حين يقع بصرك على عصابات عارمة من أطفال يرتدون أسمالا خلقة".[34]

وابتداء من سنة 1932م، نبه المنتخبون الإدارة عن مأساة الفلاحين، وطلب المستشارون العامون لمدينة الجزائر من السلطات التفكير في الوسائل المالية التي من شأنها حماية البؤساء في السهول المرتفعة لمدينة الجزائر من الموت جوعا.

كان الفلاحون يتدفقون أكثر فأكثر على المدن، وبدأ البؤس في جهات عديدة، فقد تأثرت[35]على سبيل المثال منطقة القبائل كثيرا بكساد التين، وانهيار مؤشر الزيوت والصعوبات التي كانت تعيق الهجرة نحو فرنسا.[36]

يكون العدد الظاهر للعمال الفلاحين قد تطور من 210000 في سنة 1914م إلى 462000 سنة 1930م، و573000 سنة 1954م، كما كان الفلاحون الذين يقومون بالهجرة الموسمية مثلا يقدرون بعدد 175000 في سنة 1938م و40960 في سنة 1948م و77000 في سنة 1954م.[37]

إن الملاحظات الملموسة التي يمكن القيام بها قبل 1954م تؤدي إلى الاعتقاد بخفض كبير لعدد الفلاحين، إذ لم تعد كل مزرعة جزائرية تشغل إلا نصف عمالها السابقين، واليد العاملة المؤقتة هي من دون شك الأكثر تأثرا بإدخال آلة الحصاد والدرس.

كانت الأجور منخفضة على العموم في مقاطعة وهران وأكثر انخفاضا في مقاطعة قسنطينة، حيث يتقاضى العامل مثلا 4 إلى 5 فرنكات في سنة1924م، و7 إلى 9 فرنكات في سنة 1930م، و9 إلى 12 فرنكا في سنة 1932م، و6 إلى 9 فرنكات في سنة 1934م،[38]غير أن معظم العمال لم يكونوا يعملون سوى عددا محدودا من الأيام في السنة، كيف يمكن العيش لعائلة عامل يتقاضى ست فرنكات في اليوم ويشتغل أقل من ستة أشهر في السنة؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان العامل المسلم يتقاضى دائما أجرا أقل من أجر الأوروبي مع العلم بأنهما يقومان بالعمل نفسه، وهذا ما يوضحه مُحَّد ديب من خلال ما يلي: "إن العمال الزراعيين أصبحوا لا يستطيعون أن يعيشوا بهذه الأجور الزهيدة التي يتقاضونها، إنهم سيتظاهرون بشدة ويجب أن نتخلص من هذا البؤس.[39]

العمال الزراعيون هم أولى ضحايا الاستغلال الذي يعبث في بلادنا فسادا، إن العمال الزراعيين مقبلون على معارك كبيرة، الأجور لا تزيد على ثمانية أو عشرة فرنكات. ويقول أيضا: "إننا لا نطلب إلا أجورا أعدل، هل من الشر أن يطالب الإنسان بما يسد رمقه لا أكثر؟، هل من الشر أن يطالب الإنسان لأطفاله بطعام يقيم أودهم فحسب؟، هل ذنبنا أن أطفالنا يبكون كثيرا؟".[40]

أصبح الفلاح الجزائري يشكل بروليتاريا زراعية بعد أن انتزعت منه أرضه، ولجأ إلى التكدس في المدن لتنتشر بذلك أكواخ القصدير وتنتشر الأوبئة والإدمان على المسكرات،[41]فضلا عن جماعة من طالبي

الصدقة والمتسولين، أما أولئك الذين مازالوا يتشبثون منهم بالأرض فإنهم يعيشون عيشة ضنكا، يكافحون على الدوام الجوع، القايد، و رجال الدرك وحارس الغابة، وجامع الضرائب، وعون التبغ، وديوان القمح، وجهاز العدالة،[42] فنجد محمد ديب يصف لنا حالة الفلاحين الذين لجئوا إلى المدن على شكل طوابير ضخمة من المتسولين، وهم في أبشع صور الفقر والبؤس، فيقول: "عظي عليهم جميعا غلاف من الغبرة السمراء، كانوا يرتدون خرقا متماثلة، فرغت السلطات العمومية من تعبئة آخر عناقيد المتسولين في عدة شاحنات، ومن جديد عادوا، على غرة هذه المرة.

وبمجموع تفوق بكثير أعداد اليوم الأول...، كانوا يأتون من داخل البلاد، من أعماق تتجاوز المناطق المجاورة، اجتاز كثير منهم عشرات الأميال، ومنهم من تقاطروا من مناطق الجنوب".[43]

كان عمل الفلاحين الأساسي مقتصر على جني العنب في مزارع الكروم الخاصة بالمستوطنين،[44] يقول ديب: "نحن نعمل في الكروم، أنا أعمل في مزرعة ماركوس، لم يبق هنا عمل، يمكن الذهاب إلى منطقة أخرى"،[45] وتجدهم يمارسون عملهم بشكل مجهد جدا، وينامون في أكواخ من الحجر والطوب، فيصفهم ديب قائلا: "إنك لا ترى هنا إلا أكواخا وخصاصا، وعددا قليلا من بيوت الحجر يسكنها المزارعون، ولا تكاد تختلف عن مساكن الفلاحين..،[46] سكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسامهم عرقا ودما من أجل أن يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض...، والمزارعون في بني بوبلان لا يكدسون شيئا من أوراق النقد التي يصدرها مصرف الجزائر، لا ولا يجمعون ذهبا أو فضة، لم يدخروا قرشا في يوم من الأيام، وعليهم أن يعملوا عملا قاسيا مجهدا".[47]

صادرت السلطات الفرنسية كل الممتلكات العقارية بما في ذلك أراضي الأوقاف والحبوس، فيقول محمد ديب: "القانون يحرم عليهم امتلاك أراضيهم، ألغيت سندات التمليك القديمة، لا يرث أحد أرضا عن أسلافه، الحبوس صودرت وكذلك أراضي المشاع، ثم قالوا للفلاحين، من كانت له شكوى، فليراجع المحاكم".[48]

عرفت الأوضاع المعيشية للفلاحين تدهورا كبيرا نتيجة للقوانين التعسفية التي أسفرت عنها السياسة الاستعمارية، يقول مُحَّد ديب في وصفه لمجموعة من فلاحي قرية بني بوبلان في مقاطعة تلمسان: "والمزارعون يقتاتون باليسير من الطعام ويعيشون عيشة فقيرة، منذ خمسة عشر يوما لم تر قطرة من الزيت في بيتنا، إنني مدين للبقال، وليس معي ما أدفعه له، إننا نموت شيئا فشيئا، إننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا، يقول علي بن رباح".[49]

إن حياة العمال في المدينة ليست أحسن حالا من حياة الفلاحين في الأرياف، فهم يعانون من ضغط العمل وضعف الأجور، وأوامر صاحب المعمل، فضلا على سلبية المكان وسوء التغذية، الأمر الذي جعلهم عرضة لكثير من الأمراض والأوبئة وعلى رأسها التيفوس والملاريا، يقول مُحَّد ديب: "تولى النساج إلى منسجه وعاد بقطعة رغيف من شعير، وقبضة من الزيتون الجاف، فوضعها بين يديه".[50] ويقول أيضا: "كان النساجون في سعي حثيث، حافية أرجلهم، متآكلة قمصانهم وسراويلهم، وملطخة بالصبغة، كان الإصرار باديا عليهم"....،[51] روحنا أشبه بهذا القبو، ففي الفوق أناس أحرار هنا العبيد، وهل يزيد في قيمة العبيد أن يحصل على مبلغ "دورو" زيادة في اليوم؟، فماذا تمثل المطالبة بقطعة خبز؟ ...، "يأمر بأن ننسج أربعين حنبلا في اليوم، وهو ما يساوي خدمة ما يعبر ثلاثمائة وعشرين رطلا من الصوف".[52]

يقول مُحَّد ديب واصفا وجبة الغذاء الخاصة بعمال المناسج في المدن: "كانوا يأكلون الخبز باللبن، بعضهم يأكل الخبز والزيتون، بينما يرفق آخرون خبزهم بالبطاطا، طهيت في ماء كثير، مع قطرات من الزيت، فوق رؤوسهم أنسجة عنكبوت طويلة تتدلى بكيفية رخوة، تشكل الغبرة، تحت أرجلهم قشرة رقيقة بيضاء، نفس الغبرة كانت تلتصق لتشكل غشاوة غير ملموسة في كل شيء، في حطب المناسج، في نتوءات الجدران، في الخيوط الكهربائية، وفي الحبال الممتدة من طرف الورشة إلى طرفها".[53]

كانت معنويات العمال تثبط في كل صبيحة، فهم يرون أبشع مناظر المتسولين عند توجههم إلى المعامل فيقول ديب: "في تلك اللحظة بالذات، وقع وسط حلقة من الفضوليين، كانوا محيطين بامرأة ذات جسم طويل، وجه نحاسي ممدد، كانت جالسة وسط الرصيف بلا حركة، كانت أطرافها وسخة إلى درجة تجعل من يشاهدها، يعتقد أنها خرجت من غطس في الوحل، غطت رأسها وكتفيها بخمار ملطخ أسود مثل الخرق التي عليها، كان نظرها أشبه بصرخة تستثير فضول المارة، كانت المجموعة الصغيرة تحيط بها من غير أن تتفوه بكلمة، رأى عمر أمامها كائنا صغيرا مقمطا بخرق وسخة، موضوعا على الأرض".[54]

4. الخاتمة:

تعد أعمال الكاتب مُحَّد ديب أعمالا غنية بالصور والأفكار، وهي تتوالد وتتنوع ضمن نطاق عام قائم على الشعور بالقسوة والاغتراب، وهو يريد من هذه الأعمال الوصول إلى فكرة الخلاص من خلال الثورة على الظلم والقهر، فخرجت شخصياته متنورة بعمق معرفتها بإطارها التاريخي ووعيها بحقيقة ما يجري داخل البلاد، فحرص بهذا على تهيئة المتلقي لقادم قد يكون أشد وطأة، ولكن نتائجه ستكون أفضل بكثير. ويمكن ان نجعلها من اهم المصادر التاريخية التي تؤرخ لأوضاع الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى والوضاع التي عاشها المجتمع الجزائري، وخاصة اثناء الازمة الاقتصادية لسنة 1929 وما تلاها من شح وتقتير في المواد الأولية وما تلاها من نمو الحلفاء من النازيين والفاشيين والتحضير لاندلاع الحرب العالمية الثانية، وعملية التجنيد الاجباري التي جاءت بعد النصف الثاني من العقد الثالث من القرن العشرين. وهنا نشطت الحركة الوطنية أكثر وازداد الإنتاج الادبي للكتاب والادباء الجزائريين معبرين عن استيائهم لوضع الجزائريين، امام إصلاحات الفرنسية الموهمة مثل مشروع بلوم –فيوليت وانتكاسة الوفد الجزائري للمؤتمر الإسلامي لتحقيق أهدافه وتزايد سياسة فرنسا ضغطا على الجزائريين، وتزايد الوعي الجزائري تصاعدا من اجل تحقيق أحلامه وأهدافه وهو الاستقلال، وكل دافع من جهته عن الجزائريين سواء ادباء او فنانين أو سياسيين.

الهوامش:

[1] مُحَمَّد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص67.

[2] مُحَمَّد السعيد الزاهري، السنة عن النساء الجزائريات، **جريدة السنة**، ع1، الجزائر، 1933/04/30م، ص2-7..

[3] Maurice Violette, L'Algérie vivra-t- elle?, Librairie Félix Qlcan, 108 Boulevard Saint-Germain, Paris, France, 1931, 415.

[4] ياسن سعادة، المرأة الجزائرية –بين ما كتبه الفرنسيون الكولونباليون وبعض الجزائريين وما أبرزه الواقع، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، (د. ت)، ص04.

[5] مُحَمَّد ديب، الدار الكبيرة، ترجمة سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985م، ص38.

[6] المصدر نفسه، ص39.

[7] أحلام يونسي وحسيبة كسير، صورة الطفل في الرواية الجزائرية المعاصرة "رواية الدار الكبيرة أنموذجا"، إشراف، العمري آسيا، مذكرة تخرج لاستكمال الماستر في اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة واللغة الأدبي، تخصص أدب جزائري، جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، الجزائر، 2012م/2013م، ص33.

[8] مُحَمَّد ديب، المصدر السابق، ص24.

[9] Abd El Aziz Djeniene، Le thème de la faim dans la grande maison de Mohamed Dib, sous la direction du M. Hammouda Mounir, mémoire pour obtenir du diplôme de Master 02, Faculté des lettres et des langues, Département de français, spécialité: Français, Option: langue, littérature et culture, Université Mohamed Kheither, Biskra, Algérie, 2014/2015, p23,26.

[10] مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، إشراف، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، سوريا، 1984م، ص19.

[11] الرفيس هي حلوى تبسية تصنع من الطحين والسكر والتمر والزيت.

[12] المصدر نفسه، ص79.

[13]- Maurice Violette, Op-Cit, p412 - 416.

[14] جمال الدين الآلوسي، الجزائر بلد المليون شهيد، وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة الجمهورية، الجزائر، 1970م، ص266.

[15] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي "1954م-1962م"، دار البصائر للنشر والتوزيع، ج10، حسين داي، الجزائر، 2007م، ص162.

[16] المصدر نفسه، ص14.

[17] مُحَمَّد ديب، المصدر السابق، ص14 -15.

[18] المصدر نفسه، ص23.

[19] أحلام يونسي وحسيبة كسير، المرجع السابق، ص36.

[21] مُحَمَّد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص16 و17.

[22] مُحَمَّد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص17.

[23] دكتور مختص في الطب عمل طويلا في مستشفى مدينة الجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1935م-1945م).

[24] أحمد عيساوي، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ط1، القاهرة، مصر، 2014م، ص67.

[25] محمد ديب، الدار الكبيرة، المصدر السابق، ص59.

[26] المصدر نفسه، ص91.

[27] يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية "1830م–1954م"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص52.

[28] المرجع نفسه، ص53.

[29] –أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص41.

[30] فرحات عباس، حرب الجزائر وثورتها 1–ليل الاستعمار–، تر: أبو بكر رحال: تصدير: عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص104–116.

[31] هو النظام الذي يجعل المزارع لا يعطي عماله سوى خمس الغلة.

[32] شريف بن حبيلس، المصدر السابق، ص67.

[33] المصدر نفسه، ص68.

[34] محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص118.

[35] محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (1919م–1939م)، تر: أحمد بن البار، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، برج الكيفان، الجزائر، 2011م، ص362.

[36] المصدر نفسه، ص364.

[37] المصدر نفسه، ص833.

[38] شارل روبير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة –من انتفاضة ...، المرجع السابق، ص835.

[39] المصدر نفسه، ص75.

[40] محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص159.

[41] المصدر نفسه، ص154.

[42] محمد ديب، المنسج، ترجمة أحمد بن محمد بكلي، سيديا للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص114 و115.

[43] المصدر نفسه، ص117.

[44] محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص136.

[45] المصدر نفسه، ص138.

[46] المصدر نفسه، ص139.

[47] نفسه.

[48] محمد ديب، الحريق، المصدر السابق، ص224.

[49] المصدر نفسه، ص224.
[50] المصدر نفسه، ص65.
[51] مُحَمَّد ديب، المنسج، المصدر السابق، ص188.
[52] المصدر نفسه، ص133.
[53] نفسه.
[54] المصدر نفسه، ص257.